الباب الثالث

على طريق استنباط التفسير

تمهيد

❑ وقبل التفسير لا بد من معرفة الفارق بين سبب النزول والتفسير

ونخلص مما سبق إلى أن الآيات الست الأولى من سورة الروم، كغيرها من آيات البشارات، وكما هو الحال في أول سورة الفتح - يكون نزولها في مرحلة أو عهد، ويتحقق ما فيها في مرحلة أو عهد لاحق. ويتجلَّى ذلك بأوضح ما يكون في أول سورة الروم، حيث إنه نزل في العهد المكي، وتحقق ما بشرت به الآيات في العهد المدني. وبالتالي فإن فهمها في ضوء معطيات وملابسات نزولها - فقط - وعزلها عن السياق الزمني الذي تحققت فيه، بما يتضمنه من تطورات وملابسات وأحداث، والذي أثرت فيه، وتفاعل معها، ظلم كبير لأنفسنا - لأنه يحرمنا قراءة ما فيها من إشارات مُلهِمة للعقول المؤمنة، ويستبدل بها تفسيرًا عاطفيًا لا يصلح إلا في مرحلة من عمر دعوة الإسلام مضت ولن تعود إلى يوم الدين. مرحلة كانت الدعوة فيها مجرد عقيدة لم يُلزم أتباعها بَعْدُ بتكوين كيان مادي يتمثلها ويجسدها، بتطبيق شريعتها ومنهاجها في عالم الماديات، حتى لا تظل حبيسة لعالم الروحانيات. وقد قام هذا التكليف عقب الهجرة مباشرة، وسيظل قائمًا على كاهل المسلمين إلى يوم الدين، ولا يحق لهم توكيل غيرهم أو إنابته.

وعلى هذا فالروايات الواردة في هذا الصدد لا تصلح إلا لشرح ملابسات نزولها - فقط - وأما تفسيرها، فلا. فالتفسير هو علم يهدف إلى فهم مراد مُنْزِل القرآن - تَعَالَى - من أحكام وحِكَم(*). وأما أسباب النزول فتحكي ملابسات نزول الآية من حيث

(*) قال الزركشي في البرهان: «التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمد ذلك من علم اللغة والنحو... ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول...» - أهـ نقلا عن [الإتقان للسيوطي ج٢. ص ٣٤٨، في معرفة تفسيره وتأويله] وفي منهج الفرقان في علوم القرآن: «علم يبحث في أحوال القرآن من حيث دلالته على مراد الله - تَعَالَى - بقدر الطاقة البشرية». أهـ نقلا عن الإسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة، ص (٢٦).

أحوال المُنزَل فيهم، وأفعالهم ومُرادَاتهم. وباختصار الملابسات المادية والمعنوية لنزول الآيات في حيثياتها البشرية ومن المنظور الإدراكي للمشاركين أو المتفاعلين في الموقف المُعيَّن، وشتان بين مراد الخالق ومراد المخلوق. وبرغم ذلك فقد يقع الالتباس والخلط عند التفسير، وإن كان أغلبه يقع عند استخراج الحِكَم، لأن الأحكام تحمل معنى التوجيه من الخالق إلى المخلوق، ومع ذلك فهي لم تُبرأ تمامًا من هذا الخلط. ومردُّ هذا الخلط فيما يتعلق بالحِكَم، أن المفسرين حينما رأوا أن معرفة سبب النزول مدخل للتفسير - من ضمن مداخل عدة - لم يعملوا على تبيين الفارق بين منظورين لرؤية الواقعة (سبب النزول) المنظور الأول: هو المنظور الأرضي، وهو كمن ينظر إلى ما يدور على سطح الأرض وهو يقف على سطح الأرض. ومن هذا المنظور نرقب اشتداد الكرب على المؤمنين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ في حادثة الإفك، حتى إنه لم يكلم عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حتى أنزل الله براءتها. وكذلك لوعة أم موسى - عليها السلام - وحزنها عليه بعد أن أَلْقته في اليم - على الرغم من أن هذا كان بوحي من الله ﷻ. ومن ذلك أيضًا شدة حزن يعقوب على ابنه يوسف - عليهما السلام - رغم يقينه بحياته.

وصحيح أن المثالين الأخيرين ليسا من سبب النزول - طبعًا - إلا أن المقصود من الإتيان بهما هو توضيح الفارق بين هذا المنظور الأرضي وبين المنظور الآخر وهو منظور أعلى وأسمى، فكمن ينظر إلى ما يحدث على سطح الأرض من علٍ فيرقب تطورات الأحداث ومآلاتها وإفرازاتها على الآماد البعيدة. ويعد هذا المنظور محاولة لاستكشاف حِكم الله البالغة من أحداث تقع خارج إرادتنا، فتؤول إلى ما لا يخطر ببالنا، حتى وإن كنا على يقين بحكمة الله ﷻ، فهناك فارق بين اليقين والإدراك.

ومن خلال هذا المنظور يمكن أن نفهم - إن بذلنا الجهد - هذا الخير الكامن من وراء الشر الظاهر في حادثة الإفك، وكذلك حكمة ما حدث لموسى - عليه السلام - وكيف أن ما حدث كان تأمينًا لحياة موسى عليه السلام بأن يحيا في آمن بقعة له على وجه الأرض وهي قصر فرعون ذاته، بدلًا من أن يحيا طريدًا، دون أن يهدأ قلق أمه وحزنها عليه

أبدًا ما عاشت، فرجعه الله إليها، وجنود فرعون يحرسونه. وبنفس المنظور كان ما حدث ليوسف عليه السلام لطفًا من الله لتمكينه في الأرض، وهذا ما كان ليتحقق لو ظل في البادية. وقد حرص القرآن على إثبات هذا المنظور والتأكيد عليه في مواضع كثيرة.

إذن، حتى وإن لم تكن ثمار الأحداث ماثلة في إدراك المعاصرين لها في مرحلة ما، فهذا لا يعني أنها غير موجودة، ولا يعني أن حكمة الله لم تسعها منذ أن كانت بذرة في باطن الأرض، وبالتالي فإن على عاتقنا أن نستكشف هذه الحكمة، بقدر طاقتنا. وبخاصة أن هذا ما ربانا القرآن عليه.

وفي الآيات موضع البحث لا بد من أن نلحظ أن الحالة المعنوية للمؤمنين في مكة تختلف عن حالتهم المعنوية في المدينة، وأن أقصى ما كانوا يتمنونه وهم في مكة، قد تم تجاوزه من أول يوم في المدينة فانطلقت أمانيهم ومطامحهم في فضاء يزداد رحابة يومًا بعد يوم. فأي مسوغ يسوغ لنا أن نفهم ما كان بين الفرس والروم في ضوء حالهم في مكة، حيث كان أقصى ما يرومونه من نزول هذه الآيات هو الرد على مكايدة المشركين لهم، ثم نغض الطرف عن أن هذه المرحلة قد تجاوزها المؤمنون في المدينة بمراحل، وبات يعنيهم مما هو دائر بين الفرس والروم، ما لم يكونوا يملكون ترف التفكير فيه في مكة. وفوق هذا كله كيف ينبغي لنا أن نحصر مراد الله في مرادات البشر؟!

فمراد الآيات الست الأولى من سورة الروم - والله أعلم - أنه حينما تتم غلبة الروم على الفرس فتتجاوب سوانح الخارج (وهي محصله الحروب المتواصلة بينهما وما انتهت إليه من غلبة الروم) مع تطورات الداخل (هدنة الحديبية وما ترتب عليها، فهي الفتح المبين) ينطلق المؤمنون بدعوة الإسلام خارج الجزيرة العربية.

❑ ما يستحق أن يسمى تفسيرًا من التراث

وعلى ما سبق يكون تفسير الطبرسي في جوامع الجامع هو من أقرب تفاسير التراث لهذه الآيات إلى مسمى تفسير، ولكن هناك ما يفوقه في ذلك قربًا وتفصيلًا، فتفسير ابن عطية هو بحق صفوة تفاسير التراث، حيث قال: «ويشبه أن يعلل ذلك بما

يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أَيْسَر مَؤُونة، ومتى غلب الأكبر كَثُر الخوف منه، فتأمل هذا المعنى، مع ما كان رسول اللَّه ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشرع اللَّه الذي بعثه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه اللَّه بملك يستأصله ويريحهم منه»[٧٣] ـ أهـ نقلًا عن الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

❑ القسمات النهائية للتفسير المطروح لأول سورة الروم

يذهب هذا التفسير المطروح إلى أن أول سورة الروم يتضمن بشارات متراكبة، وليست بشارة واحدة ـ بما هيأه اللَّه للمؤمنين من ظروف ملائمة على تخوم جزيرتهم العربية (مهد الإسلام) تزامنًا مع أحداث ومكاسب داخلية، سماها القرآن فتحًا مبينًا، فتتجاوب سوانح الخارج مع سوانح الداخل؛ لتنطلق دعوة الإسلام ـ خارج حدود مهدها.

ولأنها بشارة، فلا بد وأن يكون نزولها قد سبق تحققها. وهـذا واضح مـن قوله ـ تَعَالَى ـ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٤] و﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم:٤] و﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣] حتى يتحقق فيها الإعجاز الإلهي بالإنباء عن الغيب بأن تكون الأوضاع والأحوال وقت نزولها معاكسة تمامًا لما تحمله هذه البشارة. إذن، فلا بد من أن تكون هذه الآيات قد نزلت وقت أن كانت الكرة للفرس، وبحسابات التاريخ كان هذا في العهد المكي وهذا ما ذهبت إليه الروايات التي قصت ملابسات نزول هذه الآيات، وهذا ما يؤيده قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:٢].

وقد صرحت الآيات باسم قومية أحد المتغالبين (الروم)، بينما أضمرت الآخر (الفرس). ومن معهود القرآن الكريم، نتيقن أن تصريحه بأسماء الأقوام، إنما يكون للاعتبار؛ لأن مدار اهتمام القرآن على الأفعال والأوصاف، بينما يؤدي التفسير المتداول بفصله ما حدث بين الفرس والروم عن واقع المسلمين وقتذاك وحصره العلاقة

(٧٣) القرطبي، مرجع سابق، (م٧/ ج١٤/ ص٦).

بينهما في حيز الشعور إلى استنتاج أن تصريح القرآن بالروم كان احتفاءً بهم وتحقيرًا لأعدائهم. وفي هذا تجاهل لحقائق عدة، أولها: أن تلك الأحداث كانت ومحمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ على وجه الأرض وقد بُعِث نبيًّا ورسولا. فكيف يستقيم أن يحتفي القرآن بالروم؛ لأنهم أهل كتاب في غلبتهم على الفرس المجوس، ويبشر المؤمنين بأنهم سيفرحون بهذا الحدث في ذاته؟ ولأنه تزامن مع تغلب المؤمنين على المشركين في الجزيرة العربية فتكون فرحة المؤمنين فرحتين، وكما لو كان ما بين الروم والفرس يوازي ما بين المؤمنين ومشركي قريش، وكما لو كان الروم قد نابوا عن المؤمنين، مؤقتًا في محاربة الشرك خارج الجزيرة العربية، بينما هم يحاربونه داخل الجزيرة العربية، وهذه الموازاة تفترض وحدة الهدف الذي يُحَارَبُ من أَجْله المشركون.

إذن، فلماذا بُعِث محمد طالما أن هناك من يقوم بالحق بدلًا منه؟ كان من الممكن أن يقبل هذا التفسير لو أن هذه الأحداث وقعت قبل مولده وبعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأما وهو على وجه الأرض يدعو لدين الله والتوحيد الخالص الذي انحرف عنه النصارى، فلا يمكن أن ينوب عنه أحد، ولو كان نبيًّا. ثم، ما قيمة أن يفرح المؤمنون بغلبة الروم على الفرس، وهم قد تغلبوا على مشركي قريش، وأقر الله أعينهم وأنجز لهم وعده؟! فلو كان هذا وهم ما زالوا في مكة يعانون الاضطهاد وصنوف العذاب، لابتلعنا هذا التفسير العاطفي على مضض. وبالإضافة إلى ما سبق بيانه في المبحث اللغوي والمبحث التاريخي يصبح قبول هذا التفسير أمرًا متعذرًا بل وممتنعًا.

إن الشيء الوحيد الذي يمكن فهمه من توجيه هذه البشارة للمؤمنين في كتابهم المنزل على نبيهم، أن هذه البشارة تعنيهم، وأنها ستؤثر على طريق الدعوة الإسلامية تأثيرًا إيجابيًّا. وعلى هذا يكون إضمار ذكر الفرس، إنما هو بشارة في ذاته لمحمد رسول الله والذين معه، بأن إمبراطورية الفرس ستزول وللأبد؛ لأن ـ وكما سبق توضيحه ـ أي تمدد للإسلام خارج الجزيرة العربية، لا يعني إلا شيئًا واحدًا، هو: زوال الإمبراطورية الفارسية. هذا لأن وجودها هو ما يحول دون ذلك، وليس مجرد نفوذها، فلا يكفي إجبارها على التراجع، كما هو الحال مع الروم. وأما التصريح بذكر الروم، فلأنهم

الأمة التي ستبقى، وسيكون بينها وبين المسلمين قرون طوال فكلما خمد قرن قام آخر. وهذا أمر واضح لا حاجة لإثباته تاريخيًا، هنا، وعلى العكس من ذلك الفرس الذين انصهروا وذابوا في الحضارة الإسلامية، وباتوا جزءًا من نسيجها.

هذا عن البشارة الأولى. أما البشارة الثانية، فكانت بأن اللَّه قد سلط الظالمين بعضهم على بعض، فاستفرغ كل منهما طاقته وجهده؛ كي يبلغ بعدوه غاية الذل والهوان. فأنهك عدوه ونفسه في ذات الوقت كخَصمين اختلفا ضربةً بالسيف فقَتل كل منهما صاحبَه (أي صحبة المصير) قبل أن يضرب المؤمنون بسيفهم. وليس هذا تهوينًا من خطب ما واجهه المسلمون في حربهم مع الفرس والروم. فصحيح أن الإمبراطورية الفارسية كانت في حال احتضار، إلا أن زفرات الاحتضار وما صاحبها من تشنجات كانت عنيفة وموجعة وشرسة، بل وتفوق ما واجهه المسلمون في حربهم مع الروم الذين وقفوا أول الأمر في الشام، موقف المُدهَش الذي لا يحسن إلا ضربات طائشة، وما إن أفاقوا واستجمعوا قواهم، وأفرغوا غاية جهدهم ليحافظوا على ما تبقى لهم، حتى وجدوا أنفسهم يُدفعون القهقرى شيئًا فشيئًا. والمقصود أن البشارة الثانية كانت بهزيمة الفرس واندحارهم أمام الروم؛ لأنهم الأشد خطرًا.

وأما قوله ـ تَعَالَى ـ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَۗ﴾ فهو توقيت تحقق البشارة، وله دلالة أخرى، فقصر المدة الزمنية التي ستتعاقب فيها الأحداث، بدءًا من تغلب الفرس على الروم(*) ثم تحامل الروم عليهم حتى يتم لهم الظفر، دون فترة لالتقاط الأنفاس،

(*) أُختلف في تحديد موضع المعركة التي غلب فيها الفرس الروم، تبعًا للخلاف على معنى ﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾. فهل هي أدنى بالنسبة للفرس أم للروم أم لمكة؟! ثم جاء تفسير حديث مستندًا لحقيقة علمية، مفادها أن منطقة البحر الميت هي أعمق المنخفضات الأرضية وتقل عنها انخفاضًا بحيرة طبرية. وهذا يرجح أن تكون المعركة التي أشار إليها القرآن قد دارت في الأردن حيث إن كلًّا من البحر الميت وطبرية يقعان بين الأردن وفلسطين. وهذا ما ذهب إليه مقاتل في تفسيره لهذه الآية. وهذا ما يعضده اختصاص القرآن موقعة معينة بالذكر دون غيرها، فمن المؤكد أن معارك كثيرة قد دارت بين الفرس والروم، وكانت فيها الغلبة للفرس، إلا أن موقعة معينة كانت هي القاصمة لظهر الروم فخارت بعدها مقاومتهم وانفتحت بعدها الولايات الرومانية أمام جحافل الفرس، وهذا يقتضي أن يكون الفرس قد اقتحموا بالفعل بلاد الروم لا أن يكونوا لا يزالون عند تخوم العراق مع الشام، =

يضاعف من الأثر المزدوج الذي ستخلفه هذه الحروب المتواصلة، على كلٍّ من القوتين.

وتأكيدًا للمعاني السابقة، لم يعبر القرآن عن مشيئة الله وإرادته بلفظها المباشر أو بلفظ الإذن، كما في مواضع كثيرة، ولكنه عبر عنها هنا بما يتلاءم مع موضع ذكرها؛ حيث قال جل شأنه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]؛ لأن الآيات تتكلم عن أحداث متتالية، وليس حدثًا واحدًا. والسؤال هنا: من قبل ماذا؟ ومن بعد ماذا؟ قيل: «من قبل كل شيء، ومن بعد كل شيء... وقال الزجاج: المعنى من متقدم ومن متأخر، وقيل: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها»[٧٤]. ـ أهـ نقلا عن القرطبي بتصرف.

وكما هو واضح، فالأقوال متقاربة في مدلولها، وإنما تتفاوت بين العمومية والتخصيص. والتخصيص أَوْلَى «لأن (قبل)، و(بعد) ظرفا غايات، يدخلان في عداد الأسماء المبهمة التي لا يتضح معناها إلا بما يضاف إليها. وإذا ما حذف المضاف إليه، يكون لذلك دلالتان: الأولى: أنه لم يُنوَ لفظه (أي: المضاف إليه)، ولا معناه، لحكمة بلاغية، فهو بمنزلة ما لم يوجد من الأصل ويأتي المضاف (قبلٍ) أو (بعدٍ) منونًا. وبالتالي يكون نكرة ويفيد معناه في هذه الحالة، سبقًا مطلقًا وتقدمًا عامًّا غير مقيد بشيء، ولا منسوبًا لآخر، أو تأخرًا مطلقًا عامًّا غير مقيد بشيء. فيكون معنى من قبلٍ: متقدمًا، ومن بعدٍ: متأخرًا، أي: مجرد التقدم والتأخر المبهمين العامين»[٧٥].

وأما الدلالة الثانية: «أن يُحذف المضاف إليه وينوى معناه. ويكون في هذه الحال

= بالإضافة إلى أن هذا الموضع المُرجَّح يعني أن خطوط الدفاع الأولى للروم قد انهارت حتى أن الفرس قد اقتربوا من مناطق إستراتيجية للروم، وعلى رأسها «بيت المقدس» وهي العاصمة الدينية، كما أنها المعبر نحو مصر. فمن المؤكد أن الروم قد استماتوا في الدفاع عن قلب بلاد الشام، ولذلك كانت الهزيمة قاسية وقاصمة لهم. ولا تعارض بين ما سبق وبين القول بأن المقصود أدنى أرض الروم إلى أرضكم (أي مكة، أو الحجاز)؛ لأن منطقة البحر الميت وطبرية ينطبق عليهما هذا الوصف.

(٧٤) القرطبي، مرجع سابق (م٧/ ج١٤/ ص٦).

(٧٥) عباس حسن ـ النحو الوافي، (ج٣/ ص٢٥، ١٤١ـ ١٤٦).

الظرف مبنيًّا على الضم: من (قبلُ) ومن (بعدُ). و(من) هنا قد تفيد الظرفية، أي: تكون بمعنى (في)، أو تفيد ابتداء الغاية، وفي كلا الحالين يكون معنى: من قبل ومن بعد يفيد التخصيص والتقييد بالمضاف إليه المحذوف»[٧٥] أهـ. نقلا عن النحو الوافي بتصرف.

وفي الآية التي نحن بصددها جاء الظرفان مبنيان على الضم، وبالتالي فإن السَّبْق والتأخر المقصودين في الآية ليسا مطلقين أو عامين يشملان كل الأحوال، وإنما هما مقيدان ومقصوران على واقعة واحدة ممّا تناولته الآيات من وقائع. والسؤال هنا: هل المضاف إليه المحذوف هو غلبة الفرس على الروم، أم غلبة الروم على الفرس؟ وبالطبع فإن المضاف إليه المحذوف، الذي أضيفت إليه من «قبل» ومن «بعد» واحد، وإلا وقع اللبس والاختلاط. ومثله في القرآن حكاية عن بني إسرائيل فيما قالوه لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩] ورغم اختلاف اللفظ ﴿تَأۡتِيَنَا﴾ و﴿جِئۡتَنَاۚ﴾ إلا أن الحدث المقصود والمنسوب إليه السبق والتأخر واحد، وإن كانت هناك نكتة بلاغية من وراء استخدام اللفظين، وهذا ما لا يعنينا هنا.

ويرجح البحث أن المضاف إليه المحذوف هو غلبة الروم على الفرس لسبب ظاهر ومباشر، ألا وهو: أن قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ جاء بين قوله ﴿سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وقوله ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فكونه جاء بعد التبشير بغلبة الروم يرجح أن يكون هو ما قيد به السبق والتأخر، حتى يسلم المعنى من الاضطراب ويتأكد هذا بما جاء بعده، «فيومئذٍ» تعود على يوم غلبة الروم على الفرس، فهي الحدث المركزي.

وليس القول بأن غلبة الروم هي الحدث المركزي، يعني أنها الغاية في ذاتها، وإنما ما سيترتب عليها من أحداث تخص المؤمنين. والشاهد: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ﴾.

والمعنى: أن ﴿لِلَّهِ﴾ الأمر من قبل ومن بعد، تماثل معنى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

(٧٥) نفس المرجع السابق

أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]؛ أي: أن ما من شيء يحدث في ملكوت اللَّه برغم إرادته. فما من شاردة أو واردة تقع إلا بإذن الله، والأشياء لا تكون أشياء إلا إذا شاء، وليس لأيٍّ منها أن ينفلت من فلك لطفه وحكمته البالغة. وعلى الجانب الآخر، فإنه لا يحال بين إرادة اللَّه وبين إنفاذه لها. فإذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، ويدخل في هذا ما كان بين الروم والفرس، وما سيترتب عليه.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية. وبعد ما سبق إثباته في المبحث اللفظي من أن نصر اللَّه يعني: عونه على المغالب، وأن نصره لا يكون إلا للمؤمنين الذين استوفوا شروط هذا النصر، وهذا ما ثبت من تتبع موارد نصر اللَّه في القرآن، يتضح أن المقصود في الآية ـ واللَّه أعلم ـ أن غلبة الروم على الفرس هي من عون اللَّه للمؤمنين، على طريق التمكين لدعوة الإسلام، وذلك من خلال ما ترتب على هذا الحدث من نتائج كانت لصالح محمد رسول اللَّه والذين معه، دون أن يكون لهم في ذلك دور مباشر، وإنما هي سانحة هيأها اللَّه لهم، وثمرة أنضجها اللَّه لهم، فعليهم أن يقطفوها. وقد سبق تفصيل ذلك في غير موضع من البحث بما يغني عن المعاودة.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: ممن يؤدي شروط هذا النصر من المؤمنين ـ على ما سبق بيانه ـ. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥] إثبات لصفتين من صفات الله، واللتين تلائمان وتناسبان سياق الآيات. فالعزة الحقة لله وحده، فهو الغالب الذي لا يقهر، وأما من دونه فعزته منقوصة ومؤقتة، فقد يبيت في عزة، ويصبح في ذلة. فلا يتوهمّن متوهِّم أن الغلبة ستظل لقوم أبدًا، فالأيام دُول بين الناس. وقد أتى القرآن بصفة من صفات ذات اللَّه وهي العزيز، وليس صفة الفعل المتعلقة بها (المُعِزّ) لأن ـ واللَّه أعلم ـ ما كان بين الفرس والروم من تناوب العزة والذلة، لا يعني في ذاته دين الله، وإنما من حيث ما عاد عليه من خير جراء ما كان بينهما. وبخاصة وأن الناس كانوا في ذلك الوقت ينظرون لهاتين القوتين على أنهما لا تُقهران، فكان المقصود من إثبات هذه الصفة لله في هذا المقام انتزاع هيبة ورهبة هاتين

القوتين من قلوب المؤمنين، بتثبيت يقينهم بأن العزة الحقة لله، وأنه العزيز الغالب الذي لا يُقهر. وأما الخير الذي عاد على المؤمنين من ذلك فقد عبرت صفة اللَّه «الرحيم» عنه، وصُور رحمة اللَّه وآثارها كثيرة، منها ما بينه قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠] فكما هيأ اللَّه للأرض الموات أسباب الحياة بعد القنوط، بإرسال الرياح فتُحرّك السحاب وتَبسُطه كيف يشاء، ويُهَيِّئ بعضها ليخرج المطر منها، فيغيث به الأرض المَيّتة ـ وهو ما فصلته الآيات السابقة لهذه الآية ـ فكما كان ذلك من آثار رحمة الله، كانت رحمته بالمؤمنين بما أعانهم به؛ لينطلقوا بدعوة التوحيد الخالص خارج حدود مهدها ـ الجزيرة العربية ـ ويظهر دينهم الذي ارتضى لهم، ويظهرهم على أعدائه وأعدائهم.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم:٦] فكل ما سبق كان وعدًا من الله، سواءٌ غلبة الروم، وما في ذلك من إفصاح عن وجه من وجوه إعجاز القرآن بالإخبار عما سيكون في المستقبل، وإن كان قريبًا، إلا أنه بعيد عن الحسبان؛ لأن الأحوال وقت نزول الآية ما كانت لتشي بانقلاب الكرَّة للروم على الفرس. وكذلك فإن ما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين، فكان نصرًا من اللَّه لهم ـ هو من وعد اللَّه الذي حملته الآيات لمحمد رسول اللَّه والذين آمنوا معه. واللَّه لا يخلف وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

❑ هل من سابقة تفسيرية يستند إليها البحث فيما طرحه من تفسير إشاري؟

نعم هناك سابقة تفسيرية إشارية مماثلة لما طرحه البحث، فقد أخرج البخاري في صحيحه: «... عن سعيد بن جبير: عن ابن عباس، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رُئيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلا ليُريَهم. قال: ما قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أُمِرنا أن نحمد اللَّه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل

شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له: قال ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ - وذلك علامة أجلك - ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»[٧٦]. وجاء في مثل هذه الرواية في باب فتح مكة من كتاب المغازي «والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك»[٧٧]

● ويستفاد من هذه الرواية

١ـ أن أشياخ بدر من المهاجرين والأنصار، وهم من شاركوا رسول الله ﷺ حياته لحظة بلحظة، لم يفهموا من سورة النصر ما فهمه عبدالله بن عباس ـ الحدث ـ وفي هذا رد على من سيقول: لماذا لم يُؤْثَر عن أحد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ نحو التفسير الذي طرحه البحث لأول سورة الروم. وأما ما روي عن ابن عباس فيما يتعلق بأول سورة الروم، فهو ـ بغض النظر عن صحة الروايات ـ حكاية لسبب النزول وملابساته، وليس تفسيرًا لهذه الآيات ـ على ما سبق بيانه.

٢ـ أن التفسير الذي قدمه بعض الصحابة لسورة النصر كان تفسيرًا مباشرًا. يعتمد على المعنى الذي يتبادر فهمه من ألفاظ الآيات، وهو صحيح. ولكن بالإضافة إلى هذا المعنى المباشر الصريح المتبادر للأفهام هناك معنى غير مباشر ولا يتبادر للأفهام، ومع ذلك فهو ملازم لهذا المعنى المباشر، وهو ما فسر به ابن عباس السورة. فما السبيل الذي سلكه ابن عباس ليصل إلى هذا المعنى؟ وكيف أدَّاه استنباطه العقلي إليه؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من مراجعة كلامه. فنجد أنه رأى أن قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ علامة أجل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكيف فهم ذلك من هذا؟

يرى البحث أن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قد فهم من مُجمل الوحي، أنّ كلّ

---

(٧٦) ابن حجر، فتح الباري، كتاب التفسير، باب سورة النصر، (م٨/ ص٧٣٤ـ ٧٣٥).

(٧٧) ابن حجر، مرجع سابق، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح م٨/ ص٣٠.

رسل السماء كُلفوا بتبليغ أقوامهم عن الله ﷻ، وليس بالمراقبة والتتبع، وفوق هذا كان على رسول الله - عليه الصلاة والسلام - بوصفه الرسول الخاتم، تبيين شرع الله وأن يحكم به، والآيات التي تفيد هذا المعنى، كثيرة وجلية، بما يغني عن التمثيل ببعضها. كما أن الآيات التي تَعِدُ بنصر الله لرسله والذين آمنوا بهم وإظهارهم في نهاية الأمر على أقوامهم كثيرةٌ هي الأخرى وظاهرة. فحينما تحقق هذا بفتح مكة؛ حيث كانت غلبته على قومه فتحًا للجزيرة العربية كلها، وليس لمكة وحدها، فأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فكان هذا دليلًا على أن مهمته قد أَشْرَفت على الانتهاء. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ أي: استعدّ للقاء ربك يا محمد. وإذا ما اجتمع إلى ذلك توقيت نزول السورة، وهو حجة الوداع - حينما تمت الرسالة واكتمل الدين - يكون قد اتضح السبيل الذي فسر به «فتى الكهول» سورة النصر. مرة أخرى إنه المنهاج التكاملي، الذي أدرك به ابن عباس أن على رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فتح الطريق وإنارته، وقد تم هذا بفتح مكة، بما ترتب عليه من نتائج ظلت فاعلة؛ حتى بعد موته ﷺ وأما إكمال المسير فهو دور المسلمين من بعده. إذن يكون الأجل قد حان.

وعلى ما سبق، لا يكون البحث قد أتى ببدعة فيما قدمه من تفسير غير مباشر(*).

(*) ذهب الأصوليون فيما يتعلق بدلالة اللفظ على حكم أو معنى غير مباشر، ملازم للمعنى المباشر الصريح إلى أنه من الممكن أن يكون هذا المدلول عليه بالالتزام إما مقصودًا للمتكلم من اللفظ بالذات أو غير مقصود. ومثلوا لهذا النوع الأخير بقوله - تعالَى -: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾ [الأحقاف:١٥] وقوله في موضع آخر ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤] فيعلم لزومًا من الآيتين أن أقل مدة الحمل ستة أشهر» [عبدالوهاب عبدالسلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، ص٣١٨ - ٣٢١] وقد يستقيم هذا الوصف (غير مقصود) إذا كان المتكلم غير الله ﷻ فقد يتكلم الإنسان بكلام وهو لا يقصد المعنى الملازم للمعنى المباشر والصريح لكلامه، بل وقد لا يخطر بباله، أما الخالق ﷻ فلا، وهذا ليس من قبيل المشاحة في الاسم أو الوصف ليس فقط لأنه يتعارض مع إعجاز كلام الخالق جل وعلا، ولا لما قد يترتب على هذا من خلاف حول حجية الحكم المستدل عليه بالالتزام - وحسب - ولكن لأن هذا الوصف - فوق ذلك - يحرمنا من فهم القرآن فهمًا متكاملًا وملهمًا. فحينما يوصف هذا المعنى أو الحكم الملازِم بأنه غير مقصود، فإن هذا يشعر بأن استنباطه إنما جاء لضرورة خارجة عن القرآن ذاته، وليس لأن هذا ما يجب علينا أن نفهمه من القرآن، وبذلك=

حيث كانت غلبة الروم على الفرس علامة فتح ساقه الله إلى المؤمنين. حيث تزامن مع هدنة الحديبية ـ وبذلك تجاوبت تطورات الداخل مع سوانح الخارج، وحانت لحظة الانطلاق بدعوة الإسلام خارج الجزيرة العربية. والله أعلى وأعلم.

* * *

= يكون فهمنا له يأتي متأخرًا عن الأحداث لا سابقًا لها. وذلك ما يفسر اقتصار هذا النوع من الاستنباط على آيات الأحكام فقط عند البعض، بينما يطلق البعض الآخر العنان للتفسير الإشاري ليلبي نداء المذهبية الجامح.

وأكبر دليل على بطلان هذا التصنيف للمعنى اللازم إلى مقصود وغير مقصود ـ قول ابن عباس في تفسيره لسورة النصر في رواية أخرى في صحيح البخاري: «أجلٌ أو مثلٌ ضُرِب لمحمد ﷺ، نُعيت له نفسه» لأن هذا التفسير من المؤكد ليس بالمعنى المتبادر من اللفظ، وإنما هو تفسير غير مباشر بالمعنى اللازم، وكيف حينها نفهم أنه غير مقصود (فهذا التفسير ينطبق عليه ما سماه الأصوليون دلالة الإشارة، وهي نوع من الدلالة بالالتزام، تعني عندهم المعنى الذي لا يتبادر فهمه من ألفاظ النص؛ لأنه غير ظاهر من كل وجه، ولم يُسَق الكلام لأجله، لا أصالة ولا تبعًا، لكنه معنى لازم للمعنى المتبادر من ألفاظ النص، يُفهم من الكلام، ولا يُستفاد من العبارة ذاتها، ولذلك كانت دلالته بالإشارة). وكيف نفهم أن الكلام لم يُسق لأجله!، في حين أن الله قد نَعَى لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ نَفْسَه بهذا الكلام ـ حسب تفسير ابن عباس وعمر بن الخطاب.

وإن كان لا بد من تصنيف المعنى اللازم، فيكون حسب إدراكنا لعلاقة اللزوم بينه وبين المعنى المباشر ـ لا من ناحية قصد المتكلم ـ وهي بذلك تتراوح بين جلية وخفية، وبين قوية راجحة، وضعيفة مرجوحة، وفيما بينهما المحتملة بدرجاتها. والاحتكام للمنهاج التكاملي، الذي سبق توضيحه هو المُنصف.

الدروس والعبر

إن أشد ما يُعاب على هذا الذي ذاع ظنًّا أنه تفسير، عُقْمُهُ. ذلك أنه أَعْقَم عقولَنا عن أي محاولةٍ لاستلهام معاني هذه الآيات الكريمة. فلا شيء يخرج به المسلم من هذا التفسير، سوى العاطفية السَّاذَجة، وهي سَاذَجة لأنها تفترض أمرًا لا وجود له في الواقع في أي زمانٍ أو مكانٍ، وتحت أي شعارٍ. فهي تفترض أن الإمبراطوريات تتحرك تلبيةً لنداء العقيدة، وعلى ذلك يكون ما بين الروم والفرس، هو في حقيقته صراعًا بين ديانة سماوية وديانة وثنية، وهذا غير صحيح. فلم تكن المواجهة بين بيت النار المقدسة وبين الصليب المقدس، وإنما كانت بين الكسروية والقيصرية، بين الفرس والروم، كقوميتين متمايزتين. وكلٌّ منهما يستخدم العاطفة الدينية وسيلةً لإذكاء روح التمايز والحماسة، ولا بأس باستخدامها استخدامًا معاكسًا. فقد كان الفرس يحمون القبائل العربية المتنصرة المتمذهبة بالمذهب المناهض للمذهب الملكاني (مذهب الإمبراطورية الرومانية). ولو كانت الإمبراطورية الرومانية تذعن في حربها مع الفرس لنداء العقيدة الخالص، فلماذا لم تذعن لنفس النداء حينما طرق أسماعها عبر حدودها الجنوبية؟! إنهما العصبية والملك - اللذان يحركان ويحكمان سلوك الإمبراطوريات، بما فيها تلك التي تتخذ من القرآن رمزًا، لا منهاجًا. فإن جاء يوم كانت فيه الكعبة (ببيت اللّٰه الحرام، وأول بيت وضع للناس) هي العقبة التي تقف حائلًا بين المُلك وبين تحقيق أطماعه، أسقط عنها القداسة. فالقداسة الحقيقية وقتذاك للملك والعصبية؛ لذلك أَبَى الروم أن يذعنوا لنبي عربي، وأن يصبحوا تابعين للعرب، كما صرحت بعض الروايات حتى وإن لم نجد روايات تصرح بذلك، فالأحداث وحدها كفيلة بالإفصاح عنه. وبهذا فإن ذلك التفسير العاطفي الساذج، لا نجني منه إلا مزيدًا من السذاجة، تنضاف إلى ما للمسلمين من ذخيرة وافرة منها.

وإذا كان هذا هو حال ذلك التفسير المظنون، فما الجديد المختلف الذي يقدمه التفسير المطروح هنا؟ إن العنوان الرئيسي الذي تندرج تحته كل العبر التي يستلهمها

التفسير المطروح من الآيات: كيفية قراءة الأحداث وقراءة مؤشرات التوقف والتحرك، وإذا حانت لحظة التحرك، ففي أي اتجاه وبأي كيفية حتى لا يعقب التقدم تقهقر ونكوص على الأعقاب. ذلك لأن الطبيعة البشرية لدولة الرسول لا تخفى، حتى وإن كان هناك إرشاد إلهي، فهو ليس حِكرًا على رسول الله ﷺ كما هو الحال بنَغْي نفسه إليه، فطالما أنه يتعلق بدولة الإسلام، فهو لرسول الله والذين معه، ولمن يأتون من بعدهم إلى يوم الدين. ومن هذه الدروس والعبر:

١ـ أن كثرة الأعداء، قد تكون خيرًا، إن أُحْسِن تعاطيها والتعامل معها، وذلك من خلال قراءتها قراءة الفاعل، لا المنفعل. فكثرة الأعداء قد تَغْني أن كلًّا منهم سيكفيك مَؤُونة الآخرين، وقد تعني ـ أيضًا ـ أنك ستكفي بعضهم مَؤُونة البعض الآخر، بأن تكون مِطْرَقةً في يد بعضهم يدك بها رأس عدوك وعدوه، فإذا ما فرغت من مهمتك إذا به يُجْهِز عليك قبل أن تستدير له. وهنا تتجلى منة الله على المؤمنين، بأن جعل مولد دولة الإسلام واشتداد عودها متزامنًا مع حلقة السجال الأخيرة في تاريخ الصراع بين الإمبراطوريتين العظميين آنذاك بعد أن استفرغت كلٌّ منهما سُمّ الأخرى. وهذا هو مضمون البشارة التي حملتها الآيات الأولى من سورة الروم. وليس هذا انتقاصًا من فتوّة دولة الإسلام الأُولى، وإنما هو نعمة إلهية كتلك التي أَنعم بها عليهم يوم الأحزاب حينما كفاهم شر القتال. كذلك فقد كفاهم شر مواجهة القوتين وقت تحالفهما (حينما كانت علاقة كسرى بقيصر علاقة حميمة) وكفاهم شر مواجهتهما حال عنفوانهما، وإن كان المسلمون خاضوا معارك شرسة معهما حال ضعفهما، فكيف بحال قوتهما؟!

أما إنْ لم يسعفك عمرك بشهود مثل هذه اللحظات التاريخية، وإن لم تستطع أنْ تكون سببًا في استحثاثها، فعلى الأقل لا تُرِح أحد أعدائك من الآخر ليتفرغ لك، ولا يجد أحدًا سواك ليسلط عليه جمّ غضبه وعنفوانه(*). فإن لم تكن واثقًا من أنك من

(*) ما أشبه هذا بما فعله المسلمون في العصر الحديث حينما تكفلوا بإراحة الرأسمالية الغربية من الشيوعية، والولايات المتحدة الأمريكية من عدوها اللدود الاتحاد السوفيتي. بدلًا من أن نحيّد أنفسنا فيما بينهما من صراع، ونحسن استغلال انشغال كلٍّ منهما بالآخر لصالحنا، رُحنا ـ حكامًا وشعوبًا وخطباء =

سيجني ثمار أية حرب تخوضها مع عدوك، فلا تخض حربًا يجني فيها عدوك الآخر ثمارًا زُرِعَت بدمائك وفي أرضك. فإن لم تزرع لنفسك فلا تزرع لعدوك.

٢ـ ترتيب أولويات المواجهة. فليس كل الأعداء في درجة واحدة. فإن كان التخيير بين مواجهة عدو يُحْتضر، وآخر ما زال في عُنفوانه، أو ما زال يتمتع ببعض قوته، أو حتى لديه القدرة على استجماع قواه، بحيث لا يكون العَطَبُ قد امتد إلى مركز أو دائرة صنع القرار، فبأيهما يُبدأ؟! وقد يأتي الاختيار بين عدو أشد خطورة ولكنها مؤجلة إلى حين وعدو أقل خطورة ولكن احتمال تحققها أقرب، فبأيهما يُبدأ؟!

تجيبنا السيرة النبوية بأن رسول اللّٰه ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختار الثاني، ففي حين أنه لم يقم بأي تحرك على جبهة الفرس، ولم يوجّه المسلمين إلى هذا بأي عمل في مقابل إصراره على الإبقاء على الجبهة الرومانية مفتوحة حتى آخر لحظة. والروايات التي أوردها البحث ـ سلفًا ـ توضح وَعْي رسول اللّٰه بحقائق الأمور على الجبهة الفارسية. بينما كانت الجبهة الرومانية هي التي يُخشى أن تُفتح على المسلمين قَبل أن يفتحوها هم.

٣ـ عبقرية غزوة مؤتة زمانًا ومكانًا. فمن حيث الزمان، كان تجهيز سريّة في هذا الوقت المبكر، ومبادأة الروم ومفاجأتهم بها جسارة تَنُمّ عن فكر سباق مبادئ في غير رُعونة أو تهور، يأخذ القرار في اللحظة المناسبة دون تردد، ويقرأ ما ستؤول إليه الأمور دون أن ينتظر أيلولتها، حسب ما تقول به نظرية ردّ الفعل. ذلك لأن أي انتظار وتأجيل يعني منح مُهلة للروم حتى يستجمعوا قواهم ويَنْقَضُّوا على الجزيرة العربية، ويفاجئوا المسلمين في المدينة ويضعوهم في خندق الدفاع عن النفس. وهنا تَتَبَدَّى العبقرية الثانية لهذه السرية، وهي عبقرية المكان فقد نقلت خط الدفاع الأول للمسلمين وحيز الصراع المسلح بين دولة الإسلام والإمبراطورية الرومانية إلى خارج الجزيرة العربية في أرض العدو. وهذه أكبر ثمرة جناها المسلمون في مؤتة، وليس كما

= مساجد ـ نتبرع بدمائنا وأرضنا لتكون مادة للمقامرة، وحروبًا لن نكون نحن الحاصدين لثمارها. وها نحن أولاء ندفع الثمن غاليًا وللأسف ما زلنا نقوم بالدور نفسه، وكأننا لم نعتبر.

قد يفهم من انسحاب المسلمين المنظم. فقد كانت هذه السرية - إذا جاز التعبير - استكشافية استباقية وقائية؛ لتقدير مدى استعداد الروم للقيام بعمل هجومي في عُمق الجزيرة العربية في ظل ما تعانيه جراء حروبها مع الفرس، والحيلولة دون حدوثه. وقد أكد وصول سرية المسلمين إلى نقطة متقدمة خارج الجزيرة العربية دون أي مواجهة إلا في مؤتة من أرض الشام، وكذلك عدم تعقُّب جيش الروم برغم تفوقه العددي للمسلمين حينما دبَّر خالد بن الوليد انسحابهم بطـريقة منظمة وذكية - كل ذلك أكد - أن الروم ليس لديهم هذا الاستعداد. وكان هذا داعيًا لطمأنة المسلمين، حتى يتمكنوا من إعداد جيش أكبر حجمًا وعدة.

والحق أن نظرية رد الفعل (القائلة بأن كل حروب المسلمين كانت ردود أفعال مباشرة) لا تصلح إلا لتفسير انفعالات طائشة وغير محسوبة، وليست أفعالًا وخطوات محسوبة على طريق بناء دولة الإسلام الكبرى. وما فيها من جسارة ومخاطرة، لا ينفي ما اتصفت به تلك الخطوات من تبصر وتعقل. فالخوف والتردد ليسا رديفين للحكمة والتبصر، كما أن الانفعالات وردود الأفعال لا تبني دولة ولا تنهض بأمة، ولا يمكن أن ترسم طريق الانتشار والظهور لدعوة.

٤- التمايز بين ممارسة الدعوة مع الأفراد وبين ممارستها مع الكيانات المادية المسيطرة عليهم فممارستها مع الأفراد تقوم على الإقناع والاقتناع، وأما مع الكيانات السلطوية فالإقناع هو مجرد مرحلة ابتدائية إن أفلحت كان بها، وإلا..! فهذه الكيانات تنهض على مصالح مادية تستمد شرعيتها من أفكار ومعتقدات، فماذا إن لم تتمكن المعتقدات من التحاور حتى تصل إلى اقتناعات محددة؟! وهذا ما يحدثنا التاريخ بأنه قاعدة مضطردة لا يشذّ عنها إلا معدودون من أمثال النجاشي أَصْحَمَة؛ لأن المصالح المادية والمُلك والعصبية تَأْبَى أن تترك الأفكار والمعتقدات حُرّة طليقة، لتعتمد في حركتها على الإقناع بالحجة، فإما أن تَدْحَض وإما أن تُدْحَض. ذلك لأنها تستمد منها شرعيتها، فإن دُحِضَت تلك الأفكار، انهارت معها المصالح والكيانات المادية، فتستدعي الأخيرة - بدورها - القوة المادية إلى الساحة لتحافظ على وجودها -

وهو ما حدث داخل الإمبراطورية الرومانية ذاتها. إذن، لا بد من أن يكون الإسلام حاضرًا، فلا يترك أتباعه في العراء وحدهم يسامون صنوف العذاب، وفوق هذا يَحُول التخويف والتجهيل بين آخرين وبين اعتناقه. فكان عليه أن يتغلَّب على تلك الكيانات ويزيلها. وهذا ما يفسر لنا كيف ظلت شعوب البلاد المفتوحة على دياناتهم التي كانوا عليها قبل الفتح، دون أن يُجبروا على اعتناق الإسلام، على الرغم من إصراره على إزالة تلك الكيانات المسيطرة عليهم.

والمقصود مما سبق أن صِدام دولة الإسلام مع الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية لا يحتاج إلى مسوغ، بأنه كان رد فعل مباشر. فكما سبق، فإن استدعاء هذه الكيانات السلطوية للقوة المادية أمر لا مفر منه، وإنما حال بين الإمبراطوريتين وبين هذا ضغوط الوضع الداخلي. ولم يكن على المسلمين أن ينتظروا حتى يستشعروا حرّ اللطمة على وجههم فيردوا عليها. فكما قال الإمام علي: ما غُزي قومٌ قط في دارهم إلا ذُلُّوا.

وعلى الرغم من أن موسى عليه السلام قد أُمِر بالذهاب إلى فرعون ويقول له قولًا لينًا لعل قلبه يخشع، فإن هذا لم يستمر بلا نهاية. وكان من خط النهاية بيده، فرعون، بلجوئه إلى قوته المادية، ولأنّ موسى عليه السلام لم يُشرع له القتال في ذلك الوقت، تكفلت جنود السماء بِفرعون وأتباعه. فللملك والسلطان نداء لا يُلبّى إلا بالقوة المادية المتسترة بالمبادئ والمعتقدات دون التزام بها.

وهذا المعنى يؤيده قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦] أي أن احتمال القتال قُدِّم على الاستجابة، رغم أن هذا عكس ما يفهم من مجمل القرآن الكريم. ذلك لأن الآية تشير إلى المواجهة مع كيانات مادية سلطوية تأبى إلا الاحتكام إلى منطق القوة.

٥ـ أن عالمية الدعوة لم تتحقق، هكذا، بأسلوب القفز الفجائي، بل بالتدريج، ولكن بالتحرر من وتيرته البطيئة التي تجعل الإنسان يظل يراوح مكانه، وعمره يمضي حتى يُوأَد تحت قدميه. فكانت أول خطوة هي البحث عن أرض تُقِلُّ الدعوة الجديدة

وسماء تظلها، ثم توالت التطورات. نعم، كانت هناك قفزات، ولكنها ليست عشوائية، بل كانت تتم بعد تقدير مَوْطئ القدم قبل القفز؛ وكيف وأين تحطّ، وبعد تقدير قوة الدفع ومدى القفز. وبهذا نستطيع أن نفهم لماذا لم يطبق الرسول - عليه الصلاة والسلام - سياسة الفتوحات المستقرة - على الرغم من عالمية التكليف - ولماذا لم يكمل بجيشه الذي توجه به إلى تبوك، إلى الشام ليفتحها. فقد اكتفى رسول اللّٰه بالمناوشات الخاطفة مع الروم وأتباعهم من القبائل العربية المتنصرة - وهذا ما تجلًّى في توجيهاته لأسامة بن زيد - وترك هذه المهمة لمن بعده؛ لأن الاستقرار في أي مكان يقتضي - قبل التواجد فيه - القدرة على تأمين هذا التواجد، حتى يتحقق له الاستقرار.

كان هذا قليلا من كثير من الدروس والعبر التي يلهمنا بها التفسير التكاملي للآيات الست الأولى من سورة الروم. والتي حرمنا الالتباس بين سبب وملابسات النزول وبين التفسير من استلهام دروسها كما حرمنا التفسير الموضعي، والتفسير بالتطابق من التشبع أو حتى التأثر على الوجه الذي ينبغي - بالعقلانية القرآنية التي ارتضاها اللّٰه ﷻ لنا، حينما ارتضى لنا الملة الحنيفية. فلا يكفي لإقامة دولة إسلامية أن نقتصر على استلهام الجوانب الرُّوحَانية للقرآن، فضلًا عن أن يُجْزِئَ هذا المسلم الفرد في علاقته بربه. فالفرد مأمور أن يقيم علاقته بربه كجزء من بنيان مرصوص يشد بعضه بعضًا، فلا مفر من أن تضخ الروحُ الحياةَ في هذا البنيان وتغذيه بها، بينما يقوم العقل بالبناء. فتجليات الإيمان ليست رُوحانية فقط، بل وعقلانية أيضًا. وأصدق شاهد على هذا مساحة الكسب البشري في حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - التبليغية والقيادية على حد سواء.

وللتأكد من هذا ليس علينا إلا أن نستحضر مشهدين:

الأول: خروج موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل من مصر، وأما الثاني: هجرة رسول اللّٰه ﷺ والمؤمنين من مكة إلى المدينة؛ لندرك مساحة الكسب البشري في حادث الهجرة النبوية، وإن لم تَخْلُ من إعجازٍ إلهي، ولكنه بالتأكيد ليس كما كان مع كليم الله. وعلى الرغم من عِظَم المعجزات المادية القاهرة التي أُيِّد بها موسى - عليه

السلام ـ فإن دعوته دخلت في طريق مسدود حينما خَذَله بنو إسرائيل، وانتهى شأنه معهم بدعوته تلك: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥] وفي المقابل رسول اللّٰه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي لم يُؤيد بمثل هذا النوع من المعجزات الحسيَّة القاهرة، والتي تُخرج الأشياء عن طبيعتها، علنًا وعلى رءوس الأشهاد، حتى إن ما وقع له من معجزات، لم تتمتع بمركزية وثِقَل في دعم مسيرته التبليغية، كما كان الحال مع من سبقه من الأنبياء والرسل. فأكبر معجزاته ـ وهي الإسراء والمعراج ـ لم تقع في عالم الشهادة، وإنما في عالم الغيب؛ ولذا لم تكن دليلا على نبوته، بل العكس، فمن كان مُصدِّقًا ومُوقِنًا بنبوته صدّق بوقوعها. فالمعجزة الحقَّة لا تُخاطب الحواس في زمان، ثم تنقطع بعد ذلك، وإنما هي تلك التي تُخاطب العقول على اختلافها في كل زمان ومكان، وهذا هو القرآن الكريم. فحتى نكون على الملة الحنيفية، بحق، لا بد وأن نُعْمِل عقولَنا لتقود أفئدتنا إلى اليقين والإيمان، كما فعل إبراهيم خليل الرحمن، فلا انفصال بين العقل والفؤاد، ونحن مكلفون بقراءة القرآن بعقولنا وأفئدتنا معًا. وهذا تكليف عيني (فرض عين) وليس كفائيًا (فرض كفاية).

فلا يصح بعد كل ما سبق أن نستحضر قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٩] مقتطعين إياها من القرآن كله، ثم نغلق المصاحف، رافعين ألوية الجهاد، ورافعين أصوات التكبير والتهليل، متوعدين ومنذرين، تقودنا الحمية والحماسة دون تعقل أو تدبر. ولا يجوز أن نمرّ بقوله ـ تَعَالَى ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾...الآية [الفتح:٢٩] دون أن نتأمل ما تحمله هذه المعيَّة من دلالة تتنافى مع مفهوم القطيع والراعي. فهـذه «المعية» سنـة من سنن اللّٰه في الأرض ـ وليست خُلُقًا نبويًا ـ ولم يُستثـن الأنبياء منها، وعلى رأسهم موسى بن عمران عليه السلام، فعلى عظم المعجزات الخوارق التي أُيِّدَ بها، توقفت دعوته لما أَعْوَزَتْه تلك «المعية» والتي امتاز بها محمد بن عبداللّٰه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على سائر الأنبياء. كما أنه لا يجوز أن نقرأ قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ من الآية [الأنفال:٦٠] دون أن نفهم منه أنّه إبطال لنظرية المؤامرة كمظلة تسويغية؛ لأنه ليس لأمة أن تحيا بلا أعداء، وحتى في هذه الآية لم يبشرنا اللّه بفناء أعدائنا، وإنما فقط بوضع حاجز الرهبة بيننا وبينهم. فوجودهم ثابت، وإنما العامل المتغير هو ما علينا أن نقوم به.

إن أعظم ثمار المنهاج الحنيفي وما يقتضيه من تفسير تكاملي للقرآن الكريم أنه يربي المؤمن روحًا وعقلًا، حتى لا يُضطر لاستعارة عقل غيره، أو بتعبير آخر: حتى لا يترك فراغًا ليملأه غيره، فإذا ما حدث، طفق يشكو مؤامرات الأعداء ومكائدهم. فالمؤمن روح وعقل وجوارح، كما أن الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج.

* * *

قائمة المراجع

١ـ أحمد تقي الدين أبو العباس بن تيمية، دار الصحابة للتراث، طنطا، (ط١) (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).

٢ـ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة العربية، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (ط١)، (١٤١٨هـ، ١٩٩٢م).

٣ـ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل بيروت.

٤ـ د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، (ط١)، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

٥ـ د. أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، الرياض (ط٣) (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٦ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت.

٧ـ أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، دار زاهد القدسي.

٨ـ جمال الدين القاسمي، تفسير: محاسن التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ (ط١) (١٩٩٧م/ ١٤١٨هـ).

٩ـ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، (ط١)، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) بيروت.

١٠ـ جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، بيروت (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

١١ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم: د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١) (٢٠٠٠م).

١٢ـ عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف القاهرة.

١٣ـ عبدالوهاب عبدالسلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، دار السلام القاهرة، (ط٢)، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

١٤ـ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٥ـ أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١) (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

١٦ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تفسير الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط٣)، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

١٧ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط٣)، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

١٨ـ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

١٩ـ محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في القرآن الكريم، مكتبة السنة، القاهرة، (ط٤)، (١٤٠٨هـ).

٢٠ـ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت، (ط١)، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢١ـ مصطفى العبادي، الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (١٩٩٥م).

٢٢ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تقديم: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣ـ محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

٢٤ـ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح، المكتبة الإسلامية، إستانبول، (١٩٨١م).

٢٥ـ هود بن مُحكَّم الهواري، تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق: بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط١)، (١٩٩٠م).

٢٦ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

❑ من المراجع التي عاد إليها البحث في تكوين صورة الأحداث التاريخية، ولكن دون اقتباس مباشر:

١ـ أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مِسْكَوَيْهِ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٢ـ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضري المغربي، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣ـ جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، معجم أساس البلاغة، سلسلة الذخائر (١٩٩٥ـ ١٩٩٦)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

❑ الدوريات العلمية:

ـ المنهاج، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، بيروت، السنة السابعة، صيف (١٤٢٣/ ٢٠٠٢)، العدد (٢٧).

❑ الأسطوانات المدمجة:

١ـ موسوعة طالب العلم الشرعي، المستوي المتقدم (٨٠٠ مجلد)، الإصدار

الثاني، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، الأردن.

٢ـ موسوعة تفسير القرآن الكريم، مؤسسة الكوثر للإنتاج والتوزيع، دمشق.

٣ـ مكتبة علماء الإسلام، مركز التراث، لأبحاث الحاسب الآلي. الإصدار الأول، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) الأردن.

* * *